وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المثقفون القتلة والمثقفون القتلي

كتب عبد المنعم رمضان

12 أغسطس 2009

هكذا كنت أعتقد دائما، أن الكتاب الذي يستطيع أن يجمع حوله كتبا أخري ليجعل منها بعض عائلته لابد أن يصبح كتابا صاحب استحقاق وجدارة، وعندما قرأت كتاب حمزة قناوي (المثقفون)، وجدت كتبا كثيرة تخرج من شقوقها وتصطف أمامي علي المائدة، كان ظهور بعضها ظهورا ضروريا مثل كتب أنور عبد الملك، مصر مجتمع عسكري، تغير العالم، الجيش والحركة الوطنية.. إلخ إلخ.

وكان ظهور بعضها يحدث بالتناص أو بالتداعي، لهذا وقف في منتصف المائدة كتاب حمزة، وحوله فيما يشبه الدائرة الأولي كتب أنور عبد الملك، وفيما يشبه الدائرة الثانية كتب المثقفون لسيمون دوبوفوار، والمثقفون لبول جونسون، ثم فيما يشبه الدائرة الثالثة كتب الجريمة لرفعت السعيد، ورواية فرج لرضوي عاشور، أما محيط الدائرة فيتكون من حافة داخلية هي مجموع روايات صنع الله إبراهيم وحافة خارجية أشبه بحشائش خضراء منداة بمياه ري نشعت من حادثة رفضه – أي صنع الله – لجائزة مؤتمر الرواية العربية، بعد قليل لم أعد أري المائدة كمائدة، أصبحت أراها بحيرة ألقي فيها حمزة قناوي بحجره الثقيل فتشكلت كل الدوائر السابقة، بين كتاب حمزة والكتب المذكورة علاقات ووشائج، فحمزة الذي رغب رغبة غير صادقة في إخفاء اسم بطل سيرته الروائية، هو نفسه من يكشف عن الاسم بتفاصيل قادرة أن ترسم حروف الاسم في عيون قارئها، وهو في ذلك مثله مثل سيمون دوبوفوار التي تصور في روايتها المثقفون ذلك الصراع الفكري والسياسي بين سارتر وكامو، وتخفي الاسمين، غير أن التفاصيل سترسم حروف الاسمين في عيون كل قارئ، وإذا كانت سيمون اعتمدت علي السرد الروائي لتصوير مواقف اليسار في أثناء الحرب وفيما بعدها، ولتصوير مواقف المثقفين وأوضاعهم وما يحركهم من مبادئ وقيم أو أطماع وطموحات، فإن حمزة قناوي اعتمد أيضا السرد الروائي، وبرع فيه، وإذا كانت سيمون قد تعاطفت بشدة مع بطليها الرئيسين فيما كانت هي بطلة محشورة بينهما، فإن حمزة لم يفقد تعاطفه مع بطله لحظة واحدة، حتي إننا شعرنا بحبه الجارف له علي الرغم من انتقاداته العنيفة، شيخوخة أنور عبد الملك فيها ما في الطفولة من ضعف ونزق ومشاكسة وحب استئثار، فيها غرائز لا يمكن مقاومتها، وعقل منهك، عقلٌ عائدٌ من حرب طويلة بغير قبعة وبغير حذاء، شيخوخة أنور عبد الملك لا تكف عن جذب أيدينا لنضعها فوق قلوبنا خوفا من شيخوختنا المقبلة، هل سنكون وحيدين مثله، أشقياء مثله، مهزومين مثله، إلي حد أن تكتب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

مقالاتك في أهرام الأساتذة إبراهيم نافع ويوسف القرعي وأسامة سرايا بربع لسان وأقل من ربع وعي، إلي حد أن تذهب وأنت أنور عبد الملك إلي شخص كل امتيازه أنه يعمل في صحيفة نجحت في أن تصور نفسها وكأنها صحيفة المعارضة المحترمة، صحيفة يملكها رجل أموال مثل ساويرس، وتجلس في انتظار من يأذن بدخولك، ثم تهديه كتبك التي تعلم أنه لن يقرأها، وإذا فعل فلن يفيد منها، وتعرض نفسك ككاتب فيتغندر عليك ويهملك، حتي يجد ركنا فارغا في خريطة جريدته، وبالطبع لن يجد، هذه هي لحظة الهزيمة الكبري لأنور عبد الملك، مع العلم أن لكل زمان رجاله، حمزة يكتب مرثية لزماننا، وأنور عبد الملك هو البطل الضحية في هذه المرثية، فيما ينتصر عليه أصحاب النفوذ، أسماؤهم الرنانة تخترق صفحات الكتاب، حمزة ينطقها ولا يتلعثم، ولا يتهته، خاصة أهل الثقافة منهم، ولا يستثني إلا طلعت الشايب، النبيل صاحب التاريخ المحترم، عندئذ نتذكر كتاب المثقفون لبول جونسون الذي ترجمه طلعت، إنه التناص الثاني، أبطال كتاب جونسون، جان جاك روسو وماركس وشيلي وبريخت وإبسن وتولستوي وهمنجواي وبرتراند رسل وليليان هيلمان، كلهم يترنحون بين الجنون والقسوة واللعنات والضمير المضطرب والأكاذيب، وطلعت لا يدافع عنهم بمقدمة أو تعليق يكشف عن توجهات صاحب الكتاب وأغراضه، كأنه يصدقه، كأنه يحتفي به، وكلهم من اليسار فيما يجعلنا نستريب ونشك، فالكتاب مثير وأيضا مريب، إنه يدفع البسطاء إلي كراهية المثقفين واحتقارهم، كأن الكتاب رسالة توجهها جهة معلومة خفية، كان يمكن أن نفترض أن الكتاب محض مصادفة، لولا أن طلعت أعقبه بكتاب آخر، بتوأمه، وهو الحرب الباردة الثقافية، الذي يعتمد علي تقارير مخبرين خصوصيين، قائمة علي تلويث المثقفين وإدانتهم، الكتاب يشيع في الغرب، والغرب غرب، ونحن عيال عليه، وطلعت لا يدافع عن ضحاياه، والمجلس الأعلي للثقافة يعيد طباعته بدعوي الرواج، وهو لم يفعل ذلك مع كتب كانت أكثر رواجا، هل هي مصادفة ثانية، أم أنها الفعل العمد، كتاب حمزة أكثر براءة وشجاعة، وجوه كثيرة سوف تخرج من الكتاب وتطل علينا، كأنها حشرات تقرض سقف زماننا وأرضه، فنكتشف أننا ننام تحت سماء مثقوبة وفوق أرض مثقوبة، النجوم التي نراها هي نفسها الحشرات بعد أن قرضت ما قرضته، وشربت من دمنا، فاستدرات وأنارت وأصبحت نجوما، نجح حمزة في أن يفتح روايته بعفوية، وأن يختمها بكابوس، أرغمني أن أسمع وأحس لهاث رفعت السعيد وهو يكتب كتابه الجريمة ويسجل وقائع التحقيق مع قتلة شهدي عطية الشافعي، التحقيق الذي سينتهي بإلزام وزير الداخلية بدفع تعويض مالي، ودمتم، في أثناء التحقيق، يصر الشهود من زملاء شهدي عطية المسجونين معه علي إعلان تأييدهم لجمال عبد الناصر، هكذا يشهد إبراهيم فؤاد المانسترلي وأحمد القصير وإبراهيم عبد الحليم وصنع الله إبراهيم.. إلخ إلخ.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

يقول أحمد الرفاعي في شهادته: إن شهدي ألف كتابا قيم فيه دور جمال عبد الناصر تقييما ممتازا، في منزل أنور عبد الملك يحكي حمزة أنه يعلق صورا لمحمد علي وجمال عبد الناصر وماو تسي تونج، وشخصية صينية أخري ربما تكون كونفوشيوس أو صن تزو، صورة محمد علي تعلو مقعد المكتب، فتكون دوما فوق الرأس، صورة عبد الناصر في الجهة المقابلة، فتكون دوما في العينين، بين أنور عبد الملك وعبد الناصر مراسلات كشف عنها حمزة، إنها هستيريا العلاقة بين الطاغية العظيم والثوري العظيم كأنهما مستبدان في طرفي معادلة واحدة، في آخر الكتاب شكر واجب للأستاذ صنع الله إبراهيم الروائي الكبير علي دعمه ومساعدته وعدم تأخره في تقديم التوجيه والنصح والشكر يكشف عن الأمثولة التي أصبحت مأثرة من مآثر زماننا، خارج الكتاب يقف أشخاص آخرون بينهم فاروق عبد القادر وفؤاد زكريا وعبد الغفار مكاوي وعبد المنعم تليمة وطارق البشري وصبري حافظ، يقفون علي هيئة رموز تحاول أن تحمي أرواحنا من التآكل، تحاول أن تعوضنا عما نفقده بسبب أن الأغلبية الفاسدة تمد ألسنتها وأسنانها وأظافرها من أجل أن تنخر الجانب الآخر من أرواحنا، حمزة نجح في أن يجعلنا لا نستعصي

This file was downloaded from QuranicThought.com